المقاربة الكيفية في العلوم الاجتماعية

بداني أمينة نزيهة

طالبة بالسنة الرابعة دكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم.

مقدمـــــة:

يهدف أي بحث في العلوم الاجتماعية إلى "**اقتراح تفسيرات ونظريات التي تساعد على فهم السلوك البشري والعمليات الاجتماعية**"[1]لذلك وضعت البحوث والاجتهادات في منهجيةالبحث العلمي في العلوم الاجتماعية مناهج وأدوات متعددة ومختلفة لتخطيط العمل حول موضوع الدراسة. ومن اجل ضبط البحث والوصول إلى نتائج صحيحة، يحاول الباحث اختيار طريقة منظمة وملائمة لدراسته والتي تساعده في إجراءاته البحثية، فيلجأ إلى المقاربات المنهجية وهي عبارة عن طريقة خاصة غير تقليدية في إتباع أساس نظري يتكون من مجموعة مبادئ تتأسس عليها المنهجية. ومنه فالمقاربة هي الطريقة التي يتناول بها الباحث الموضوع.

إن هذا العمل يهتم بنوعين مختلفين ومهمين من المقاربات في العلوم الاجتماعية، المقاربة الكيفية التيتهدف إلى فهم الظاهرة الاجتماعية من خلال مشاركة الأفراد الاجتماعيين وتقابلها المقاربة الكمية التي تفترض وجود حقائق اجتماعية منعزلة عن مشاعر ومعتقدات الأفراد. "المقاربة الكمية والكيفية تدلان على مجموعة المناهج المنظمة بطريقة متناسقة في إطار عملية البحث من أجل التفكير والتنقيد تقرير العلم في العالم"[2]اختلفت الآراء حول أهمية كل من المقاربتين في العلوم الاجتماعية، فلكل؟ مقاربة خصائصها تجعل منها الأفضل والأنسب من الثانية. من خلال هذه الدراسة سنتطرق في بداية المطاف إلى تعريف كل مقارنة مع تبيان أهميتها ودورها في دراسة الظواهر الاجتماعية وكذا دراسة علاقة كل مقاربة بالأخرى والفرق بينهما. كما سنحاول الإجابة على الإشكالية المطروحة حول أفضلية المقاربة الكمية أو المقاربة الكيفية لدراسة الظاهرة الاجتماعية.

1- المقاربة الكيفية في العلوم الاجتماعية

إنما تعنيه المقاربة الكيفية في العلوم الاجتماعية تلك الأبحاث والدراسات التي تعتمد على الوصف والتفسير المنطقي الذي يجيب عن أسئلة كيف؟ ولماذا؟، حيث انه يتم تحليل المعلومات والمعطيات بطريقة تفسيرية ذاتية والتي مفادها ذلك الاجتهاد الشخصي للباحث في تعليل وتوضيح نتائج الدراسة محل المقاربة منطقيا بغرض الوصول إلى هدف تقديم وصفكامل ومفصل عن الظاهرة الاجتماعية وكذا من اجل فهم سلوك الأفراد والأسباب الدافعة لذلك بما أنها تحلل الفعل والتفاعل مع أخذ بعين الاعتبار نية وإرادة الفاعل من خلالالسلوك.

كما يجب التنويه إلى أن الباحث في دراسته الكيفية لا يعزلالأفراد الاجتماعيين عنها، حيث يتم دراسة هؤلاء الأفراد والفاعلين. أي في سياق أو ظرف الظاهرة[3]. أي تحاول هذه الدراسة فهم الظاهرة والفاعلين فيها داخل سياق أو عدة سياقات التي بدورها تغير حقيقةالفرضيات أو معنى الممارسات في الظاهرة الاجتماعية.إن من احتياجات الدراسة الكيفية لجمع وتحليل معطيات الأدوات مثل المقابلات، تحليل محتوى أو تحليل مضمون، تحليلوثائقي والملاحظة بالمشاركة...الخ.

إن إشكال المقاربة الكيفية في إثبات صدق النتائج، تجعل الباحث مقيد في التعليل والبرهنة لغياب حجج مادية، إلا أنه يمكنلإثبات صدق ذلك إتباع مناهج ملائمة وجيدة لدراسته مع توضيحالعلاقة بين معطيات المقاربة ونتائجها المفسرة[4].

ولهذا يمكن التأكد من صدق النتائج المحصل عليها من خلالالدراسة، باستعمال مناهج بديلة لنفس المقاربة والوصول إلى تطابقالنتائج، حيث يعتبر هذا الإجراء مفيد جدا في الدراسات الكيفيةلإضفاء قيمة لما تقدمه هذه الأخيرة.

2- المقاربة الكمية في العلوم الاجتماعية

إذا كانت المقاربة الكيفية في العلوم الاجتماعية، تبحث في فهمالظاهرة الاجتماعية من خلال سلوك وتصرفات الفاعلين، فانالدراسة الكمية تساعد على قياس تلك السلوكات والأفعالباعتمادها الأساليب الإحصائية في جمعها للبيانات وتحليلها. كما أنها تقتضي إنشاء متغيرات والبحث فيما بينها لوضع علاقاتإحصائية وتركز على الحسابات وتصنيف المميزات وصناعة النماذجالإحصائية والأشكال الهندسية من أجل تفسير ما هو ملاحظ وماهو مدروس، ولكن العملية الاجتماعية لا تلجأ بالضرورة إلى القياسفيكل حالاتها.

تهدف المقاربة الكمية إلى اختبار الفرضيات وتوضيح النظرياتعن طريق إبراز العلاقات بين المتغيرات وتعميم نتائج البحث علىحالات أخرى. تبقى الدراسة الكمية بعيدة كل البعد عن سياقالظاهرة إنما تبحث في قياسات محددة وتنشأ علاقات بين المتغيرات المدروسة للإجابة عن أسئلتها ومطالبها. وهنا يكمن إشكال المقاربة الكمية في عدم اهتمامها بوجهة نظر المبحوثين[5].

تحتاج الدراسة الكمية في جمع البيانات والقياس إلى أدوات، مثل استمارة المسح، معدات القياس، جمع المعطيات الرقمية والبرمجيات...الخ. يتجلى صدق نتائج الدراسة الكمية في مهارة التحليل الإحصائي والتطبيق الصارم لعمليات الحساب المدققة.

3- المقاربة الكيفية أو المقاربة الكمية لدراسة الظواهر الاجتماعية

إن كل من المقاربة الكيفية والمقاربة الكمية في دراسة الظواهر الاجتماعية، من شأنها الإجابة بطريقتين مختلفتين عن إشكاليات الدراسات في العلوم الاجتماعية للوصول إلى الحقائق وتفسير السلوكات الاجتماعية،كما أنهما يكونان منهجيتين مغايرتين.

الدراسات الكيفية والدراسات الكمية هي مجموعات متناسقة ومناهج موجهة نحو توضيح الجوانب المنتظمة للظاهرة (المقاربة الكمية) والجوانب المنفردة لدى الظاهرة (المقاربة الكيفية)[6] بمعنى أن الدراسة الكيفية التي تهتم بمميزات الظاهرة في سياقها.

كذلك تركز الدراسة الكيفية على جمع البيانات اللفظية أما الدراسة الكمية فتركز على البيانات القابلة للقياس.

كما يمكن أن يظهر الفرق بين المقاربتين في زاوية أخرى غير نوعية المعطيات التي يتم دراستها. ففي المقاربة الكمية يتم التركيز على المتغيرات والأفراد ولا يظهرون إلا عندما لا تستطيع المتغيرات تفسير الظاهرة، أما المقاربة الكيفية فتأكد على الفاعلين الاجتماعيين وليس المتغيرات، فهي تفرض وصف هؤلاء الفاعلين أثناء تصرفاتهم وفي حالة عدم إدراك الباحث للأفعال والتصرفات آو الممارسات الاجتماعية وتطوراتها. فالدراسة الكيفية تفقدكل معناها.

LALONE وPOUPART[7] يكشفان عن بعض مميزات المقاربة الكيفية التي يمكن من خلالها توضيح الفرق بينها و بين المقاربة الكمية:

- درجة الصدق في المقاربة الكيفية غير مضمونة.
- كلا المقاربتين الكيفية والكمية تقدمان إمكانيات دراسة وتحليل مختلف الإشكاليات بطريقتين مغايرتين.
- المقاربة الكيفية تسمح بدراسة الظواهر الاجتماعية من زاوية الفاعلين لذلك يفضل استخدامها في العلوم الاجتماعية.

إن القول الذي ينوه إلى أن كلا من المقاربتين يتعارضان في الدراسة، لا مجال له من الصحة إذا اعتبرنا السؤالين المهمين اللذان تطرحهما DURU-BELLATMARIA[8]

- هل يمكن التحدث عن الكم المحض؟
- هل يمكن التحدث عن دراسة بدون تكميم؟

فمهما كانت المقاربة كمية أو كيفية يكون هناك دائما إجراء يحول دون استغناء إحداهما عن الأخرى من اجل إثراء الدراسة بالنتائج المراد التوصل إليها. هناك فرق بين المقاربتين وليس تعارضا، ويتجلى ذلك بوضوح من خلال استعمالها في الكيمياء التي تعرف المقاربة الكيفية بانها" **التحليل أو الدارسة التي تحدد العناصر المكونة للمادة بدون الأخذ بعين الاعتبار نسبة المكونات**"[9]. ومن هذا التعريف نلاحظ فرق بين المقاربتين إذ يتبين بأن المقاربة الكيفية تسبق المقاربة الكمية وتحضر لها، فهي مقاربة استكشافية تقدم الظاهرة وتعرف المفاهيم قبل قياسها اختبارها إحصائيا، وهي مثالية للمراحل الأولى من البحث، أما الدراسة الكمية فينصح أن تستخدم من أجل المراحل النهائية من البحث.

في المقاربة الكمية نحتاج أولا إلى معرفة ماذا نريد أن نقيس من أجل فهم تعقيد الظاهرة والاستفسار عن أبعادها، لذلك يجب اللجوء إلى البحث الكيفي قبل القياس الكمي.

كلا المقاربتين تفرضان اختصاصات مختلفة من طرف الباحث، لكن يمكن أن تكون هناك علاقة تكاملية بين المقاربتين، ويتجلى ذلك في أن المعالجة الكمية تقدم إسهاما مفيدا للتحليل الكيفي الذي بدوره يمهد بمفاهيمه للظاهرة الاجتماعية قصد تحليلها كميا، لأن النتائج الإحصائية لا تقدم صورةكاملة عن هذه الظاهرة. كما أن الاحتكاك بالمبحوثين، من ملاحظة ممارساتهم ومساءلتهم، لا يمنع من استخدام سلسلة أرقام أو معطيات زمنية التي توضح أكثر وتساعد على فهم الظاهرة المدروسة.

وخلاصة القول، أنه وبعد عرض أهمية كل من المقاربة الكيفية والمقاربة الكمية في دراسة الظاهرة الاجتماعية، فإننا نستخلص أنه بالرغم من الاختلاف الكبير والواضح بين المقاربتين، فإنه يمكن لهما أن تدمجا معا في دراسة واحدة إذا كان الهدف هو معرفة مدى ميول سلوك الأفراد نحو موضوع ما أكثر من غيره ومعرفة أشكال وأسباب هذا الميول. فلهما أن تدمجا على درجات مختلفة حسب موضوع الدراسة وهنا تكمن العلاقة التكاملية فيما بينهما.

إن كلا من المقاربتين الكمية والكيفية لها نقاط قوة ونقاط ضعف تتغير حسب الموضوع الذي يريد الباحث دراسته. فإن إشكالية البحث وأهداف وأسباب الدراسة هما اللذان يحددان موقف الباحث في الاختيار بين المقاربة الكيفية أو المقاربة الكمية، أو إدماجهما معا من أجل تفسير الظاهرة الاجتماعية المطروحة لديه.

الخاتمة:

تعتبر المقاربات الكمية والكيفية إسهام معرفي و أساس نظري لدراسة وفهم السلوك البشري والظواهر الاجتماعية المعقدة والمتشابكة التي تستلزم من الباحث اجتهادات لغرض فهمها وتفسيرها. لكل من المقاربتين الكمية والكيفية طرق منهجية مختلفة، يمكن للباحث أن يتناول بها دراسته العلمية . وكل واحدة منهما تقدم نوع خاص من النتائج المراد الوصول إليها، كما أن لكل أهدافها المحددة التي يمكن ربطها بأهداف الدراسة.

كما لاحظنا انه من الخطأ أن نعتبر أن المقاربتين تتعارضان في نفس الدراسة، بل تتكاملان وتقدمان معرفة علمية تتسم بالمثالية لتفسير غموض وتعقيد الظواهر الإنسانية والاجتماعية. ثم إن الفرق بين المقاربتين جلي في المصطلحين الكيفي والكمي، فالنوعية هي صفة الشيء أما الكمية فتتناول عددا أو مقدار هذا الشيء. ورغم كل هذا الاختلاف، فبالإمكان دمجهما معا في بحث واحد حسب ما قررته الدراسات العلمية التي نجحت في الاستفادة من هذا الاشتراك.

وعليه، فإن الاختيار بين أحد المقاربتين أو جمعهما معا في بحوث العلوم الإنسانية الاجتماعية، لا يرجع إلى الخصائص والفروقات بين المقاربتين، وإنما يعتمد على طبيعة الدراسة والإشكالية المطروحة والأهداف من البحث التي يرسمها الباحث للوصول إلى نتيجة معينة تثبت أو تنفي الفرضيات التي صاغها قبل بدايته لجمع المعطيات وتحليلها.

Références bibliographiques :

1.JonesRussel.A, Méthodologie de recherche en Sciences Humaines, Paris, Bruxelles, De Boeck, 2000, p 17.

2.Gondard-Delacroix Claire, La Combinaison des analyses qualitative et quantitatives, Pour une étude des dynamiques de pauvreté en milieu rural malagache, Thése pour le Doctorat en Sciences Economiques, Soutenue le 20 Septembre 2006, Université Montesquieu Bordeaux IV, France, p 43

3.DumezHérvé, Qu'est ce que la recherche qualitative ?,Le Libellio AEGIS, Vol.07, N°4, Hiver 2011, p 48.

4.SchneiderDaniel.K, Méthodes qualitatives en Sciences Sociales, Petite introduction aux méthodes qualitatives,TECFA, Vol.09, Nov 2007, p79.

5. Agathe Couvreur, Franck Lehuédé, Essai de comparaison de méthodes quantitative et qualitative à

partir d'un exemple : Le passage a l'Euro vécu par les consommateurs, Cahier de Recherche N° 176, CREDOC, Nov 2002, p 11.

6.Gondard-Delacroix Claire, Op cit, p 44.

7.Jandir Ferrera de Lima and Yvan Desbiens, L'approche quantitative et qualitative dans les études du développement régional, Informe Gepec, Version 13, N° 01, Jan/Jun 2009, p 124.

8.Léger Alain, Pour un nouveau bilan de la sociologie de l'éducation, Quelques aspects d'une complémentarité conflictuelle, INRP, CNRS, Université Descartes, Mai 1993, p 03.

9. Dumez Hérvé, Op cit, p 47.